

تجلي الرمز في رواية «نجمة» لكاتب ياسين

فاطمه قادري*

أستاذة مشاركة بجامعة يزد

زهراء حاجي حسيني

طالبة في مرحلة الماجستير بجامعة يزد

(١٧٠-١٥٣)

تاريخ الاستلام: ٩١/٠٩/٠٨؛ تاريخ القبول: ٩٢/١٢/١٤

الملخص

يعتبر كاتب ياسين من أبرز الكتاب والشعراء الجزائريين الذين كشفوا أمام الرأي العام حقيقة مأساة الجزائر. و له آثار متعددة في الرواية والشعر والمسرح، كتبها بالفرنسية، ولكن الفكرة المسيطرة على آثاره هي الفكرة العربية والثقافة الجزائرية الأصيلة التي اندمجت بالثقافة الإسلامية. فمن أهم رواياته «نجمة» التي تعتبر تجربة جديدة في شكل الرواية؛ هذه الرواية واجهت إقبالاً عاماً من طرف الجمهور، وأصبحت مكانتها مرموقة بسبب استخدام الكاتب فيها تقنيات الرواية الحديثة. تصور هذه الرواية أوضاع الجزائر و وحدة الأمة الجزائرية ضمن رموز متعددة، استطاع الكاتب فيها أن يُلطّف من تعبيره عن الحقيقة المؤسفة المسيطرة على الجزائر، لأنّ المعاني التي أوردها الكاتب معان غزلية تدور حول علاقة حبّ، وأنّ لغة الكاتب فيها لغة شعرية جميلة. فهي رواية جميلة قيّمة، تدلّ على أنّ لكاتبها مقدرة كبيرة على كتابة الرواية. يهدف هذا المقال دراسة الرمز في رواية «نجمة» بدءاً بذكر موجز عن حياة كاتب ياسين ورواية «نجمة»، ثم يأتي بآراء مختلفة للنقاد حول رمزية رواية «نجمة»، وفي النهاية يتطرق إلى أهمّ رموز هذه الرواية معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي. ومن خلال دراسة هذه الرواية يتبين أنّ نجمة في الرواية أسطورة أكثر منها امرأة، وهي ترمز للجزائر في بعدها الجغرافي، ولكن في تلاحم كامل مع التاريخ.

الكلمات الدلّيلية: كاتب ياسين، رواية نجمة، الرمزية.

المقدمة

إنَّ كاتب ياسين من أبرز الكتّاب والشعراء الجزائريين الذين عبّروا بصدق وعمق عن فترة قاسية من حياة الجزائريين. وفي السادسة عشرة من عمره تفتحت عيونه على ظلم الاستعمار ومصائب بلاده، فقد شارك في مظاهرة سلمية عندما كان طالباً في مدينة سطيف، وشاهد بعينه كيف فرّقت السلطات الفرنسية تلك المظاهرة بعنف.

لقد تغنى كاتب ياسين بالثورة وبالجزائر، و وصف حرب الإبادة وعذابات السجون بشجاعة تامة، و وضّح آمال الشعب وآلامه بقوة لم يستطع أحدٌ قبله أن يعبر عنها. و من آثار كاتب: «نجمة»، و«الجثة المطوّقة»، و«الأجداد يزدادون ضراوة»، و«المجموعات الشعرية المتنوعة، والمسرحيات...».

كتب الكاتب روايته "نجمة" سنة ١٩٥٦م، وهي أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة، وقد استقبل المفكّرون والنقاد الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة، واعتبروا كاتبها أحسن من يمثّل مدرسة أفريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوروبيين.

ومن أهم رموز الرواية «نجمة»، وهي بطللة الرواية الهاربة، تمثل الجزائر الجديدة. إنّها بنت امرأة فرنسية، ولكن أباهما الذي كان جزائرياً، غير معروف. وهي الغائبة والحاضرة دائماً، يلاحقها أربعة أبطال (رشيد، الأخضر، مراد، مصطفى)، ومغامرات هؤلاء في البحث عنها تشكّل إطار الرواية. والرواية تعرض المظالم السياسية والاقتصادية في الجزائر.

وبما أن رواية نجمة صارت رواية عالمية، حسب ما يقول النقاد، وهي رواية معقدة رمزية، كما أنّها تاريخية، فهذا المقال يتناول الرمز في رواية «نجمة» محاولاً التعريف بهذه الرواية التي أثارت إعجاب القراء، ليبين أن الكاتب استطاع التعبير عن الحقيقه المسيطرة على الجزائر عبر الرموز المستخدمة في الرواية.

الدراسات السابقة

الدراسات التي تناولت هذا الموضوع قليلة جداً، ولم تتناوله بصورة مباشرة، بل درست حياة الكاتب و آثاره بشكل كلي، فيمكن تصنيفها حسب زمنها على النحو التالي:

أولاً: «دراسات في الأدب الجزائري الحديث» لأبي القاسم سعدالله ١٩٨٥، ذكر فيه اسم كاتب ياسين ذيل عنوان «كتاب الجزائر بالفرنسية»، ثم يشير إلى روايته الشهيرة «نجمة» إشارات سطحية عابرة.

ثانياً: «الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية» ١٩٩١ تأليف ج. ديجو، وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني، قام بتعريف عشرة كتاب جزائريين منهم كاتب ياسين. ثالثاً: «حدود العصور - حدود الثقافات» أَلَف هذا الكتاب أيضاً باللغة الفرنسية، ثم ترجمه إلى العربية ممدوح أبو الوي وراتب سكر.

رابعاً: «سعاد محمد خضر» في كتابها «الأدب الجزائري المعاصر» تحدثت في قسم من كتابها عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وأشارت إلى كاتب ياسين. خامساً: عالم كاتب ياسين الأدبي لمحمد السعيد عبدلي، ٢٠٠٩، درس فيه أدب كاتب ياسين وآثاره دراسة موضوعاتية.

سادساً: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي لأحمد منور، ٢٠٠٧، أشار فيه إشارة عابرة إلى توظيف الأسطورة في رواية نجمة. ولكن الباحث لم يجد من خلال بحثه دراسة خاصة درست الرمز في هذه الرواية بشكل خاص.

كاتب ياسين

ولد الشاعر والروائي الجزائري الفرانكفوني في ٢٦ أغسطس ١٩٢٩م في إحدى مقاطعات قسنطينة بالجزائر، لأسرة من أصول بربرية. (السكوت، ٢٠٠٩: ٤٢٦) تردد كاتب ياسين على المدرسة القرآنية ثم التحق بالمدرسة الفرنسية، وبعد فترة انقطع عن الدراسة، شارك في مظاهرات ٨ مايو ١٩٤٥، فسجن و عمره لا يتجاوز ١٦ سنه. (شرف، ١٩٩١: ٧٢-٧١) و كان لأحداث القمع الدامية التي شهدتها بلاده خلال هذه المظاهرات أبلغ الأثر في إثارة غضبه واشتعال شرارة التمرد في كيانه. (حسن، thawra.alwehda.org)

اشتغل صحفياً مراسلاً لصحيفة «الجزائر الجمهورية» لمدة عامين، من سنة ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠، تنقل بين المملكة العربية السعودية والسودان وآسيا الوسطى السوفيتية. (منور، ٢٠٠٧: ٣٣٨)

ترك كاتب ياسين مهنة الصحافة سنة ١٩٥٠ إثر وفاة والده، واشتغل في مرفأ الجزائر ليعين عائلته، ثم ترك هذا العمل واشتغل مهناً بسيطة، خادماً في مزرعة، عاملاً زراعياً، عامل بناء، مساعداً كهربائياً. وبين سنتي ١٩٥٩ و ١٩٥٤ فرغ من كتابة روايته: «الصحفة المطوقة» و«نجمة» التي رأى فيها الطاهر بن جلون ابتكاراً فنياً جديداً على كتابة «السيرة الذاتية للجزائر». (السكوت، ٢٠٠٩: ٤٢٦) وهي تعتبر تجربة جديدة في شكل الرواية؛ إنها كتبت أساساً على شكل نثر مشعور مما أثار كثيراً من المجادلات وسط النقاد الفرنسيين. (سعدا،...، ١٩٨٥: ١٠٣)

في البداية رفض الناشرون روايته نجمة؛ لأنها معقدة جداً، وغير متجانسة، بيد أن كاتباً ظلّ يعمل فيها يد الإصلاح والتشذيب والتقطيع حتى نشرت أخيراً سنة ١٩٥٦ بعد تنقيحات وترقيم صفحات اعتباطي مصدرين بتحذير غريب، وجهه المدير الأدبي لدار النشر الذي عمل على قبول الرواية. (ج. ديحو، ١٩٩١: ١٦٣)

رغم النجاح الذي حققه كاتب ياسين، ورغم الشهرة الكبيرة التي وصلت قمته، فإنه ظلّ سجين الاغتراب اللغوي، وهو يجيب على خصومه المعاندين لأصحاب اللسان الفرنسي قائلًا: «أكتب بالفرنسية لأقول للفرنسيين إني لستُ فرنسيًا، والكتابة بالفرنسية لا تعني أننا عملاء لقوة أجنبية أو دعاة للمسح و التغريب، بل إن امتلاكنا لهذه اللغة سلاح لصالحنا. فقد ربنا معركة التحرير، لأننا كنا ندمن لغة المستعمر على حين كان هو يجهل لغتنا». (المصدر نفسه: ١٦٣)

و يعتبر كاتب ياسين واحداً من كبار كتّاب المغرب العربي، و واحداً من أهم رواد الأدب في شمال افريقيا. و قد منح الجائزة الوطنية الكبرى للأداب بفرنسا عام ١٩٨٦م.

(صالح، www.adabfan.com)

رواية نجمة

"نجمة" رواية تحمل كل ملامح الجزائر، وتاريخه، ووثائقه، وسيرته، ونضاله، ومناضليه. (ياغي، ٢٠٠١: ٢٢) وفي هذه الرواية وضع كاتب ياسين شخصيات متعددة ومتباينة في واقعها الاجتماعي بنوازع وهموم وأفكار مختلفة، سواء ذاتية أم اجتماعية، اهتموا بتغيير الواقع المفروض على البلد في تلك الفترة، وهو واقع الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد جسّد كاتب ياسين ذلك الواقع في روايته. (صالح، moheet.com)

وواقع أن الرواية تشرح أحداث ثامن مايو ١٩٤٥ وواقع مأساة الجزائر إبان سيطرة الاستعمار الذي دامت ١٣٠ سنة. فللوصول إلى هذا الهدف يستخدم الكاتب شخصيات رمزية، ويروي أحداث واقعية رمزية حتى يؤثر في القارئ أكثر فأكثر. ومن خلال الرواية يشاهد القارئ الأحزاب والشخصيات المختلفة التي عاشت في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي لها، كما يشاهد العمّال والفلاحين الذين يعملون طوال اليوم من أجل لقمة عيش قليلة وهم الذين يعيشون وطنهم ويحملون في سبيل الوطن أعباء كثيرة، وهناك أيضاً جواسيس وخونة يبيعون وطنهم بأشياء رخيصة؛ فنجمة رواية مصائر محتومة، إنها رواية الحرب في الجزائر، الحرب المفروضة بقوة الاحتلال مقابل حرب التحرير الجزائرية، وشخصية نجمة هي التي رغم عزلتها بحكم تقاليد القبيلة وعاداتها تنتصر في النهاية. (المصدر نفسه)

أحداث الرواية

تشتمل رواية نجمة على سبعة فصول، تبدأ من نقطة ما قبل النهاية، وتسير متقاطعة حتى تصل إلى نهاية البداية وبداية النهاية. وفي هذه الدائرة الروائية مركز، هي نجمة التي تدور حولها جميع الأحداث. تدور الرواية حول شباب ينتمون إلى قبيلة من البدو الرحّل، تقطن أحد جبال الأوراس، هم: الأخضر، ومصطفى، ورشيد، ومراد؛ وثلاثة أبناء عمّ من قبيلة يقوم الزواج اللحمي بين أفرادها، وهم: (سيدي أحمد، السي مختار، و أبو رشيد، وشخص رابع هو المتمزمت)، يطلق على القبيلة اسم كابلوط، نسبة إلى قائدها الذي هاجر مع أفراد أسرته من المشرق العربي. نمت القبيلة وكبرت، وأصبحت مع الزمن كثيرة الأتباع، لها مضاربها، ومزارها ذو العلم الأخضر، يهاجمها الحكام الذين يفرضون سيطرتهم على الجزائر، فيراقبونها خوفاً على سلامتهم.

وفي بداية الأمر حذا الفرنسيون حذوهم، ثم ما لبثوا أن بعثوا بجواسيسهم يجوسون الجبل يتفحصون عن طريق لمحق القبيلة المتمردة، وُجِدَ الحُلُّ في يوم من الأيام، عندما شاهد الكابلوطيون جثتي رجل وامرأة غريبتين على أرض جامعهم، تسيل دماؤهما، ولم يستفيقوا من دهشتهم إلا على الحديد والنار، يعملان في القبيلة انتقاماً للضحيتين. فقطعت رؤوس ستة من زعماء القبيلة أمام من نجا من أتباعهم. لم تنته المجزرة حين وصل رسولٌ من القوات المركزية يعتذر للقوم عن الحادث، ويعترف ببراءتهم من الجريمة التي كانت سبب المجزرة، ثم كَفَّرَ عن قطع رؤوس الزعماء الستة بمنح أطفالهم الذين لم يغادروا المهده ألقاباً تمثل الوظائف التي ستسندها إليهم السلطات عندما يبلغون سن الرشد. فقدت القبيلة رئيسها الذي يلمّ شععتها، وعند ذلك شرَّد الفرنسيون أطفالهم، وبعثوهم في مناطق مختلفة، ولكن جمعهم رابطة الدم ورباطة الشعور بمأساة وطنهم، فاجتمعوا مناضلين تحت لواء واحد. (ياسين، ١٩٧٩: ٩-٨)

الرمز و الرمزية

الرمز لغة هو «الإيماء والإشارة»، وقد استعمل في علم البيان العربي للدلالة على «الكتابة الخفية» (فاعور، ٢٠٠١م: ٢٣٥) وقد اتجه الكتاب إلى الرمز؛ لأن «الرمز أكثر امتلاء وأبلغ تأثيراً وأكثر شعبية من الحقيقة الواقعة. فهو مائل في الخرافات والأساطير والحكايات والنكات وكل المأثور الشعبي، والتفاهم بطريق الرمز بين الناس شيء مألوف. والناس يلتقون عند الرمز؛ لأنه أثر للتراث السحري؛ فهو يأسرهم ويجذبهم إليه بقوة لا تجذبهم بها الحقيقة الواقعة». (.../revue.minculture.gov.ma) وتتفق هذه الدلالة اللغوية و التطبيقية في مدلولها العام مع الرمزية الحديثة التي ذاعت في أوروبا مدة طويلة، وسادت على الأعمال الأدبية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وقد عبّرت عن الانطباعات النفسية عن طريق الألغاز والتلميح بدلاً من الأسلوب التقرير المباشر. ظهرت الرمزية كحركة أدبية ثورية استهدفت تحطيم الأشكال القائمة عبر الاعتماد على الرمز، والإيجاز بدلاً من تقرير الشيء. (فاعور، ٢٠٠١م: ٢٣٥؛ كندي، ٢٠٠٣م: ٣٢-٣١)

رواية «نجم» رواية رمزية

من أهم ميزات هذه الرواية توظيف الكاتب الأسطورة التي يتخلص بها من رتابة السرد الواقعي ويمتدحها مجالاً أوسع للتعبير المجازي، والانطلاق في الأجواء الرحبة للتصوير الرمزي. يتجلى ذلك على وجه خاص في شخصية كابلوط، وهو السجد الأعلى للقبيلة الذي جعل روحه تخترق حدود الزمان والمكان، وشخصية نجمة التي جعل منها امرأة خارقة للعادة. (منور، ٢٠٠٧: ٣٥٤)

توجد آراء مختلفة حول رواية نجمة الشهيرة؛ يعتقد بعض الدارسين والنقاد بأن الرواية مملوءة برموز مختلفة، والكاتب وضع بعضها إلى جانب بعض، وفي النهاية حصل على هذه الرواية الجميلة باستخدام التقنيات الحديثة في مجال كتابة الرواية، كما يعتقد بعض النقاد خلاف ذلك، فَمِنْ هؤلاء عبد العزيز كحيل، وهو يبدي رأيه عن الرواية في مقالة عنوانها «كاتب ياسين عملاق أو وهم كبير»، ويقول: «يجب أن أشير إلى حقيقة شوّها أنصاره، وخذعوا بها الناس تتعلق بأشهر رواياته «نجم»، فقد أشاعوا أن نجمة ترمز إلى الجزائر التي هام بها الكاتب، وتفانى في حبها، وضحّى بحياته من أجلها، وهذا ادعاء ليس له أساس من الصحة؛ لأن الأمر يتعلق بامرأة من مدينة عنابة أحبها في شبابه، وقد كانت متزوجة، رغم ذلك عاشها لمدة ثمانية أشهر، وهذا ما صرّح به غير واحد من أقرابه وأصدقائه، ومنهم شقيقته في مقابلة صحفية ... ؛ وهذا تحريف تبنّاه كثير من النقاد من غير تمحيص، وربما مع سبق الإصرار لصنع مجد زائف لرجل له عن بلده تصور خاص لا تشاطره فيه الأغلبية الساحقة من المواطنين.» ثم يستمر في قوله: «لقد قرأت أهم كتب ومقالات كاتب ياسين وباللغة الفرنسية - التي أحبها بفضل... - فوجدتها غامضة المعنى، معقدة المبنى، ملتوية الدروب، وللنقاد أن يقولوا ما أرادوا، لكن يبدو لي بعد أن درست حياة الرجل، وشخصيته بدقة أن لإدمانه على الخمر دخلاً كبيراً في ذلك.» (www.arabtimes.com)

في رأي أن كل قارئ يستطيع أن يكره الرواية أو يعجب بها، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لجميع الآثار الأدبية، لأن الأدب أمر يعتمد على الذوق، ولكن عندما نعبر عن آراءنا، وننقد أثراً ما، علينا أن نتخذ موقفاً حيادياً، ونعبر عن رأينا في موضوعية وصحة. وبالنسبة لهذه الرواية التي قرأتها مرات عديدة أعتقد أن كل قارئ يعرف الرمز، يستطيع أن يكشف رموز هذه الرواية، لأن في الرواية قرائن عديدة تدلّ على هذه الرموز بوضوح، والحق أن كل هذه

الرموز لا تستطيع أن تأتي متتابعة مجرد صدفة. علاوة على هذا، يوجد في الرواية ما يخالف قول الناقد عبد العزيز كحيل، سواء في سردها أو حواراتها أو أوصافها، ونحن سنشير إلى هذه الرموز وما يدلُّ عليها. وأما قوله في غموض آثاره والتوائها فالقول صحيح، وهذا أمر يقبل به كلٌّ من تعرّف على الرواية، ولا أدري ما السبب في هذا الغموض؟! ولكنني أعرف شعراء وكتاب عديدين يدمنون على الخمر أو المخدرات ولا نستطيع أن ندين آثارهم بهذا السبب.

أهم الرموز في رواية نجمة

أ - نجمة

إن تسمية الرواية تقدم لنا دلالة أولية، وهي مهمة إلى حد كبير؛ لأن لها علاقة مع محتوى الرواية من خلال معناها المعجمي أو تركيبها الصوتي أو ... (الخطيب، ٢٠٠٩: ١٥). إن اسم نجمة هو في الواقع من الأسماء المتداولة بكثرة التي تسمى بها المرأة في بلاد المغرب بعامة، والشرق الجزائري خاصة.

وأما من الناحية الواقعية فإن نجمة هي امرأة حقيقية كان يحبها كاتب، وقد صرّح هو نفسه بذلك، إلا أنه يصرّح بأنه لم يكن يريد أن يحكي قصة هذا الحب، بل يريد أن يقول كل شيء عن الجزائر. (منور، ٢٠٠٧: ٣٦٠)

وفي هذه الرواية أقام الكاتب مطابقة بين تسمية الرواية والشكل الخماسي الذي تتمظهر عليه الجزائر على الخريطة الجغرافية، ومن جهة أخرى بين هذا الشكل وبين النجمة الخماسية التي تنقش على العلم الجزائري. كما يربطها بمعناها الرمزي و اللغوي، لأنّ نجمة هي شيء مضيئ جميل جداً، وهي تسرّ الناظرين، لكنها بعيدة المنال لا يحصل عليها أي شخص ولا يمتلكها، وفي الرواية يسمّى الكاتب الشخصية الرئيسية بهذه التسمية، وهي فتاة في غاية الجمال، ويعشقها الجميع لكن لا يحصلون عليها أبداً. فهي فتاة شابة لكنها تتميز عن غيرها بجمالها الفائق، وشبابها الغض. كانت نجمة تلفت أنظار الناس إلى كل شيء حتى إلى طفولتها: «كانت نجمة - في طفولتها - شديدة السمرة، قريبة من السواد، وكانت هر كولة، متوترة الأعصاب، متينة البنيان، دقيقة الخصر، طويلة الساقين، تبدووا - في جريها - كعربة كبيرة العجلات، عالية، تتمايل بمنة ويسرة دون أن تحيد عن طريقها ... تلك

هي نجمة، العنيفة، الفنق الفذة! كانت تسبح وحيدة، و كانت تنزوي في ركن مظلم لتحلم أو تقرأ،..» (ياسين، ١٩٨٤: ٨١-٨٠) يتحدث المؤلف في البداية عن نجمة كما يتحدث عن امرأة عادية، يتحدث عن طفلة عاشت يتيمة الأبوين، حيث إهالم تعرف لها أب و «في- الثالثة من عمرها تخلت عنها أمها الفرنسية فبنبتها «للا فاطمة» التي كانت عاقراً». (المصدر نفسه: ١٠٩) بعد هذه المعلومات العامة لا نجد في الرواية أية تفاصيل أخرى عن طفولة نجمة، وعن مرحلة المراهقة، وينتقل المؤلف مباشرة إلى مرحلة النضج و الزواج .

قبلت نجمة الزواج «لأن أمها أَلحَّت عليها في ذلك». (المصدر نفسه: ٤٩) تزوجت من كمال، وهو رجل مسالم، ضعيف، يحيا حياة هادئة، لا يعكّر صفوها رغبة في التغير أو التغيير أو التطوير أو الطموح في الوصول إلى هدف معين في الحياة. (منور، ٢٠٠٧: ٣٤٣) يبدو أن المؤلف يتحدث عن امرأة عادية لم تكن محظوظة في طفولتها وزواجها. والواقع أن هذا النص يسمح للقاري بتأويله بأشكال مختلفة، مثلاً بالرجوع إلى تاريخ الجزائر، والبحث عن الرجل الضعيف الذي حكم الجزائر في يوم من الأيام، ولم تكن له همّة ولا طموح يجعلانه مؤهلاً لحكم هذا البلد. (المصدر نفسه: ٣٤٣) ينتقل المؤلف من تصوير شخصية نجمة على هذا النحو الذي تبدو فيه امرأة عادية، ويكشف عن جوانب غير عادية فيها، فجماها يحمل سحراً خاصاً يفتن كل من يراها من الرجال ويسلبه إرادته. هذا ما يعبر عنه مصطفى، أحد أبطال الرواية في مذكراته، فيقول: «روى الكاتب نفسه أنه يوم رأى نجمة للمرة الأولى عن كتب، قد اهتز قلبه لها بعنف. إنك لتجد نساء قادرات على كهرة الجو من حوّلن وإثارة الحديث عنهن.... لكن نجمة ليست سوى بذرة البستان، وإرهاص السخية و أريج الليمون...». (ياسين، ١٩٨٤: ٨٧) هي سلبت عقول الرجال بجماها والجميع يبحثون عنها في كل مكان؛ منهم أربعة من الأصدقاء يوجد بينهم رابطة النسب والقراية، وهم: مراد، أحضر، مصطفى، و رشيد. كأن المؤلف بهذه العبارات يريد أن يخرج شخصية نجمة من حدود الواقع ومن كونها امرأة يهيم في حباها الرجال ويتنافسون من أجل الظفر بها، لتحل محلها صورة الجزائر بجماها وجلالها، بماضيها وحاضرها، بآلامها وآمالها. (منور، ٢٠٠٧: ٣٤٤) إنّ نجمة ترمز إلى الجزائر الكبيرة، وترمز لكلّ مدينة من مدنها، سواء تقع في ساحل البحر، أو في الصحراء. كل بلد روت أرضها دماء المقاتلين الأحرار. (حضر: ١٩٨)

إنّها نجمة «تمر من قسنطينة إلى عنابة، و من عنابة إلى قسنطينة... أضحّت كما لم تكن؛ لا تراها إلا في قطار أو في عربة مجرورة، وأمسى الذين يعرفونها لا يستطيعون تمييزها من بين النساء المارات في الشارع، لم تعد سوى شعاع خريفي خبا بريقه، أو مدينة محاصرة ترفض أن يحل بها الخراب؛ كانت محتجة بالسواد، يصطحبها زنجي كان حارسها على ما يبدو». (ياسين، ١٩٨٤: ١٩٠) على ما يبدو إن الزنجي هنا يرمز إلى إفريقيا تحرس الجزائر البطلة وتحميها، وحركة نجمة المستمرة بين قسنطينة وعنابة رمز لكفاح المرأة الجزائرية البطولي ولحركة الجموع المستمرة التي لا تنقطع. هكذا يركز الكاتب على دور المرأة الجزائرية خاصة عندما فرض الاستعمار هيمنته؛ لأن محاربة الاستعمار تحتاج إلى مساهمة كل الجزائريين، فوسع المجال أمام المرأة الجزائرية. اشتركت المرأة الجزائرية مع الرجال في مواجهة الموت للوصول إلى الهدف، كما أنّها كانت خير ممرضة للجرحى في ساحات القتال. يصور لنا الروائي ذلك الدور الهام للمرأة، كما أنّ الشخصية الرئيسية في الرواية هي المرأة.

ب - كابلوط

وفي الرواية أسطورة نجمة تتكامل مع أسطورة كابلوط. ترمز نجمة للأرض التي لا يمكن للقبيلة أن تحيا بدونها، وهي ترمز إلى الجزائر في بعدها الجغرافي، وفي جانبها يرمز كابلوط إلى العنصر البشري للقبيلة، وإلى تاريخها. (منور، ٢٠٠٧: ٣٦٩) يعتقد الدكتور إسماعيل عبدون بأنّ أسطورة القبيلة تحمل وظائف مختلفة في المفهوم الاجتماعي للمغاربة منها: «- أسطورة القبيلة هي فضاء الذاكرة الاجتماعية للجماعة، وتنقل قصة تاريخهم عبر الأجيال.

- الأسطورة تؤكد أصل الجماعة والمكان الجغرافي الذي تنتمي إليه- هو عين الغرور بالنسبة للكابلوطين.

- يحوي الخطاب الأسطوري على مجموعة من القوانين الاجتماعية التي تساهم في تنظيم الجماعة و المحافظة عليها وهي: تقديس الأرض واحترامها، واللعنة على كل من يبيعها. (اللعنة في الرواية ظهرت على سي مختار و رشيد).

- يكون الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة «زواج لحمي»، وكل خروج عن هذا القانون هو تهديد للقبيلة.

- السير وفق الدين الاسلامي، وضرورة احترام الأجداد و«جماعة العقال»، حيث يرجع لها الشأن في تنظيم الأمور والحكم فيها.

- الخطاب الأسطوري هو رحم الثقافة، ويمثل الشعر الوسيلة التعبيرية للقبيلة.» (بلخامسة: ٢٤٩)

ضمن قراءة أعمال كاتب ياسين وخاصة روايته نجمة يستنتج القاري بأن أسطورة الأجداد هو العمود الرئيسي الذي تبنى عليه مواضيع أعماله، وهي من مكونات سيرته الذاتية. وقد استفاد الكاتب من الرجوع إلى الأجداد كطريقة للدفاع عن الهوية والثقافة مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، كما تصور أسطورة الأجداد التنظيم الاجتماعي الخاص بدول المغرب، وهي صدى للتفكير الإيديولوجي في المجتمع الجزائري. (المصدر نفسه: ٢٥٠-٢٤٩) إن المؤلف يتحدث عن كابلوط التي ينحدر منها، وهي قبيلة عربية لها تقاليدها العربية التي احتفظت بها على مر الزمن. وقد تعرضت القبيلة فعلاً للتقتيل والقمع والتشريد من قبل المستعمرين الفرنسيين، الذين وجدوا مبرراً لفعلهم بعد أن عثروا على رجل فرنسي وزوجته مقتولين في مسجد القرية. وقد خططت السلطات الفرنسية لإضعاف القبيلة، وإنما تبحث عن ذريعة، وقد جاءت الذريعة متمثلة في مقتل الزوجين الفرنسيين، لكن القبيلة لم تستسلم للأمر الواقع، «فاستجمعت القبيلة المستأصلة أوأصرها وأكثرت من الزيجات بين الأقارب، واستعارت لها ألقاباً أخرى لا تعرف بها، حتى لا تقع تحت طائلة العمليات الانتقامية، وأبقت الجماعة بعض الشيوخ والأرامل والأطفال في أرض الأجداد التي دنست، كي تبقى آثار القبيلة المقصومة قائمة». (ياسين، ١٩٨٤: ١٣٢) والكاتب قد تعمد أن يصور أحداثاً حقيقية ووقائع تاريخية، تتعلق به وبأسرته وقبيلته وجدّه الأعلى كابلوط، وذلك لدواعي فنية للوهلة الأولى، ثم لدواعي فكرية، حتى سمح له هذا السجور الأسطوري أن يجمع تفاصيل كثيرة ضمن رموز قليلة، وليروي روايته في حرية كاملة دون حدود ولا قيود عبر الزمان والمكان. (منور، ٢٠٠٧: ٣٥٦)

ج- الشخصيات الأربع

تظهر وراء الشخصيات الأربع (أخضر، مراد، مصطفى، رشيد) تجربة الكاتب الشخصية مرتبطة بأصدقائه وأبناء العم؛ فيمثل الأخضر صديقه في المدرسة، ومصطفى هو صديقه الذي اقتسم معه غرفته، ورشيد هو ابن عمه الذي أحبّ هو أيضاً نجمة ومراد هو تضحية الرواية. (بلخامسة: ١٩٢)

علاوة على ذلك نحسّ في نصّ الرواية الحضور الحقيقي للمؤلف، الذي يتجسّد ضمن شخصية أخضر، خاصة عندما نلاحظ تفاصيل كثيرة عن حياته، وطفولته، وحياته في المنفى، والتشرد، ودراسته في الثانوية، ومشاركته في مظاهرات ٨ ماي ١٩٤٥، وسجنه. (المصدر نفسه: ٢٦٠)

يعتقد الدكتور حفناوي بعلي: «رواية كاتب ياسين «نجمة» هي رمز الجزائر، نعم، الجزائر التي أخذت بالقوة، وعشقها كل الأوروبيين. وقد عكس لنا الكاتب بكل وضوح هذا الصراع الذي كان قائماً آنذاك، ويتجلى ذلك من خلال التنافس بين العشاق الأربعة: مراد، الأخضر، رشيد، ومصطفى. وكل واحد أراد الظفر بها والزواج منها. فالتنافس الذي أراد كاتب ياسين هو التكالب الأوروبي على الجزائر في محاولة منهم لتقسيم الوطن العربي، ولذلك فالعشاق الأربعة الذين ذكرهم كاتب ياسين، إنّما يمثلون الدول الأوروبية العظمى، الذين جعلوا من الجزائر فريسة يجب اصطياها بشتى الطرق. نعم الجزائر هذا البلد الذي يمتد في شمال إفريقيا، ويترعب على الموقع الاستراتيجي الذي جعله محل أنظار الجميع، هذا البلد الذي يحتوي على حقول الغاز والبتروول والحقول الخضراء الشاسعة». ثم يقول: «والزنجي هنا رمز إلى إفريقيا السمراء، تحرس الجزائر البطلة وتحميها» (www.nu5ba.net) وهذا القول صحيح في بعض جوانبه ولكنني أعتقد بأنّ الكاتب ما كان قصده من العشاق الأربعة الدول الأوروبية، وما كان قصده من الزنجي إفريقيا السمراء؛ لأنه يسمي هذه الشخصيات بأسماء عربية أصيلة، مع أنه استطاع أن يسميها بأسماء فرنسية، كما نلاحظ في بداية الرواية شخصيات كارنست، وسوزي و... .

فما هو سبب التشابه بين تلك الدول وهذه الشخصيات؟

يبدو أن قصد الكاتب من هذه الشخصيات الأربع الأحزاب والجمعيات المتعددة التي انعقدت في الجزائر طوال أطوار مختلفة بهدف تحرير الجزائر من الاحتلال والتسلط على

مقاليد القدرة والحكومة، لكنها هزمت بسبب علاقتهما بفرنسا؛ وصور الكاتب تلك العلاقات في الرواية عندما شرح علاقة الزنوية للأجداد بتلك الأم الفرنسية المستهترّة، وهذه علاقة غامضة تسوق ذهن القاري نحو علاقة الأخوة المتقرّرة بين العشاق الأربعة ونجمة. كل واحد منهم لا يستطيع الزواج بها بسبب علاقة الأخوة التي تربطه بنجمة، كما هو الحال بين نجمة وكمال، وفي النهاية ينتصر الزنجي ويتمتع بالوصول إلى نجمة لفقدان رابطة تربطه بتلك الأم الفرنسية التي شوّهت نسب ابنتها. ليست تلك الأم في هذه الرواية إلا رمزاً للاستعمار الفرنسي الذي روج في أذهان الجزائريين «فرنسا هي أمنا»؛ وليس الزنجي إلا رمزاً لشعب الجزائر المظلوم الذي كافح ضد العدو ولم ينس أصلته وهويته الجزائرية طوال قرن وثلاث قرن بعد أن سعى الاستعمار في محو هويته، ذلك الزنجي الذي عاش عمره في أرض الأجداد، ولم يتركها حتى بعد أن قتل الفرنسيون أبناء قبيلته.

كذلك يمكن أن يكون الأصدقاء الأربعة رمزاً للانتفاضات المختلفة التي لم تُؤدّ إلى الانتصار، والزنجي رمز للثورة النهائية التي قاوم بها الشعب، وقضت على الاحتلال والاستعمار وحرّرت الجزائر من قيوده وأدّت في النهاية إلى الاستقلال؛ وهذا المعنى ضعيف بالنسبة للمعنى الذي ذكرناه سابقاً.

تصوّر لنا الرواية علاقة الجيل الجديد بالجيل القديم ضمن علاقة رشيد بسي مختار، وهي النقطة المثيرة للاستغراب، لأنّ سي مختار يحاول التقرب من رشيد وجذبه، حيث عرفه بنجمة، كان غرض الكاتب من وراء ذلك هو تبيان علاقة جيل الآباء بجيل الأبناء، العلاقة التي لم تبين على الصراع، بل أكثر من ذلك فهي غياب وتخلّ عن الواجب الأبوي، وهي مرآة تعكس مدى عمق الانفصال بين كاتب ياسين وأبيه خاصة، وأنّ أبيه يموت في فترة كتابة الرواية. فهذا الجرح العميق يمنعه من رسم صورة الأب. (بلخامسة: ١٩٣)

يصف لنا الكاتب كيفية اهتار القبيلة وتشبّثها بدساتس الاستعمار، ثم يصور لنا المتشبّثين بتقاليد القبيلة وهم يعتقدون بأن انغلاق القبيلة على ذاتها وقوقعتها على نفسها هي التي تساعدنا أمام المخاطر. لذلك حرّضوا أهل الجبل على طرد الأغيار والسخونة الذين تركوا أرض الأجداد. وكل هذا يرمز إلى الوقائع التي حدثت في الجزائر منذ عام ١٨٣٠ بعد مجيء الاستعمار بدساتسه المختلفة.

والواقع الذي يركّز عليه الكاتب بشكل رمزي جميل، وهو حقيقة الخيانة؛ وما حدثت تلك الخيانة بسبب عدول الأجداد عن وصايا الكبلوط في جبل الناظور، بل حدثت الخيانة بسبب تعامل الأجداد مع الاحتلال الفرنسي. تعامل الأجداد مع الفرنسية المستهترّة التي أنجبت نجمة، وولدت الجزائر الجديدة وصارت الجزائر ابنة للأم (فرنسا) بسبب هذه الخيانة الكبرى.

يدين كاتب ياسين ضمن الرواية فرنسا، وهي التي أضرمت النيران في جسد نجمة أي الجزائر منذ استيلائها، لكنّه يدين خيانة الأجداد ويكرهها أكثر مما يكره الاستعمار ويدينه. نلاحظ في الرواية تراجيديا المؤنث؛ لأنّ المرأة تعيش في مأساة الاستعمار، وتتمظهر من خلال أمّ الأخضر وأمّ مصطفى المحنونة، ويشير ذلك إلى سيرة الكاتب وأمّه الحقيقية التي أصيبت بالجنون، هكذا يدمج الكاتب الخيال بالواقع في صورة متلاحمة. (المصدر نفسه: ١٩٠)

كذلك يسمى الكاتب المرأة التي تتبنّى نجمة « للافاطمة»؛ وهي من أبرز نساء الجزائر اللاتي حاربت العدو عند حرب التحرير، ومازال يضيء اسمها في قائمة المقاتلين ضدّ العدو الفرنسي.

في رأي تعمّد الكاتب في اختياره لشخصية للافاطمة، وهي التي ترعرعت نجمة في أحضانها منذ الطفولة حتى اختطفها سي مختار و رشيد. يتبين لنا قصد الكاتب من هذا الاختيار عند طرح هذا السؤال (إلى أين كان ينتهي مصير نجمة لو لم تكن للافاطمة)، يريد الكاتب أن يقول: ما انقطعت أنفاس الجزائر، ومازالت حياتها استمرت بعد مجيء الاستعمار. وهذه الحياة رهينة بالمرأة الجزائرية التي ترمز بها للافاطمة.

د- السكين

تكلم كاتب ياسين في مواضع عديدة عن السكين، تبدأ أحداث الرواية من بيع السكين أمام زجاجات الخمر:

«فقال مراد مقترحاً: اسمعوا، ما رأيكم لو بعنا سكينين؟...»

وقدم الجماعة السكين برجل موشوم، فعرض عليهم خمسين فرنكا ثمنا له. فقال مراد:

بل خمسة و سبعون.

حسناً

و كان ثمن السكين يساوي مائة وخمسين فرنكا دونما شك، نصف الثمن إذن...
إني أزيدك عشرين فرنكا أخرى ثمن السكين إن أردت.
فرد عليه الأخضر: دع ذاك عنك، فما إلى جيبك إلى جيبنا». (ياسين، ١٩٨٤: ٧-٦)
إن لفظة السكين وتكرارها دليل على أهمية الدور الذي يقوم به السكين في الرواية.
«وأخرج سي صالح شيئاً من جيبه، آه... انتفض الأخضر:
هات هذا السكين!...

لقد اجترأ على اشتراء السكين الذي باعه مراد...
و ذاك السكين يبيع للاحتفال بعودة صديق آخر..
يشترى السكين و لا يفكر في إعادته إلينا... فقال رشيد:

هات السكين فمن يدري... و أيدته ذو اللحية، فقال: من يدري». (المصدر نفسه: ٢٩)
هذا النص مقتطف من حوار طويل جرى بين الشبان الثلاثة و ذواللحية بعد ارتكاب
جريمة قتل السيد ريكار. ومن خلال هذا الحوار يكتشف مدى تعلق الشبان بهذا السكين
وأهمية هذا السلاح في الرواية. ومن خلال هذه العبارات يتبين لنا أن السكين ليس إلا رمزاً
لأسلحة المناضلين والمقاتلين، والروائي يستفيد منها عندما يريد أن يفهمنا عزيمة
المحاربين وقاتلهم ضد الاستعمار.

وهكذا كثر الحديث عن السكين في الرواية. وفي الصفحات الأخيرة من الرواية نقرأ
فقرة تتحدث عن مغادرة الأخضر ومصطفى لنادي الشباب: «وحفر الأخضر بسكينه على
المقاعد وعلى الأبواب: استقلال الجزائر. غادر الأخضر ومصطفى نادي الشباب، بحثاً
عن اللافئات». (المصدر نفسه: ٢٣٨) معنى هذا أن استقلال الجزائر لا يتحقق إلا باستعمال
السلاح والقتل وإراقة الدماء، فهذا وحده يخرج الجزائر من الدائرة المغلقة عليها لزم
طويل. (عبدلي، ٢٠٠٩: ٢٠١)

كما أن لفظ سكين يرمز إلى تاريخ قبيلة كابلوط وقصة تشبثها، وهي قبيلة قد جاءت من
الشرق الأوسط، وذهبت بأسبانيا، واستقرت بالمغرب في جبل الناظور تحت قيادة
كابلوط. كبرت القبيلة، وبنيت في كل جهة مساجد ومدارس. بعد استيلاء فرنسا على
الجزائر، بعث الفرنسيون مجموعات من الجنود ليجتثوا عن طريقة لتثبيت أقدامهم
فيها، لكن الكبلوطيين لم يخضعوا لسلطتهم. لذلك وجد الفرنسيون الحلّ في محو القبيلة

المتمرّدة: «حصل كلّ ذلك خلال بضعة أيام، على إثر اكتشاف جثتي رجل وزوجته في مسجد كابلوط، وقد مزقتهما طعنات عديدة بسكين. كانت الجثتان منطرحتين وقد كساهما الدم، ملفوفتين في أسمال. وأمّا هوية القتيلين، فإنّها مازالت إلى اليوم محاطة بالغموض...، وعيّن القضاة العسكريون؛ وبعد زمن يسير، جزّت رؤوس أعيان القبيلة الستة، في نفس اليوم، الواحد تلو الآخر... وأمّا الشيخ كابلوط (و ليس هو كبلوط الجدّ الأكبر، ولكن أحد أحفاده) فإنّه كان في تلك الفترة قد مات. وأضحّت القبيلة بعد تلك الإعدامات الستة، بدون شيخ». (ياسين، ١٩٨٤م: ١٣٢)

إن نجمة من أجمل آثار كاتب ياسين و أنجح ماكتبه، لأنها واجهت إقبالاً عاماً، خاصة من قبل الأوروبيين. إنها رواية واقعية رمزية تعالج قضية الاحتلال الفرنسي في الجزائر وتتمحور حول الثورة الجزائرية وتحريرها .

رواية نجمة تقدم معاني سامية عظيمة، معان تكشف عن اضطهاد الناس في الجزائر وحرمان الشعب الجزائري من أقلّ حقوقه، وتصور ما ارتكبه الاحتلال الفرنسي من الجرائم خلال قرن وثلث قرن في بلد مليون و نصف شهيد.

لم يتحدث ياسين كعموم الكتاب في الجزائر عن القتل الحقيقي في الجزائر الذي عانى منه الجزائريون، بل تحدث عن القتل الرمزي، قتل الجزائر في هويتها وأصولها، ومحقّ الاستعمار للثقافة القومية فيها.

النتيجة

إن رواية نجمة مملوءة برموز رائعة معجبة، ساعدت ياسين لتواجه روايته استقبالاً واسعاً من طرف الجمهور. والحقّ أنّه قصد من سردها معاني سياسية اجتماعية، جامدة في صلبها، مؤسفة في فحواها، مثيرة للخيبة. فقد استطاع كاتب عبر هذه الرموز أن يُلطّف من تعبيره عن هذه الحقيقة المؤسفة المسيطرة على الجزائر، خاصة أنّ لغة الكاتب فيها لغة شعرية جميلة، وأنّ المعاني التي أوردها الكاتب ضمن رموزه معان غزلية تدور حول علاقة الحب، وقد اعتمد عليها ليُجَلّي من خلالها معاني سياسية اجتماعية. يرمز كاتب بنجمة عن الجزائر، وقد جعلها المؤلف من أم فرنسية وأب جزائري غير معروف، لتمثّل روح البلاد الممزقة، كما تمثّل نموذجاً من الأبناء التائهين بين هويتين، واتخذهم رمزاً للأحزاب

المختلفة التي عزمت السيطرة على الجزائر، وقصدت مقاليد الحكم فيها. والزنجي هو رمز للشعب المناضل الذي لم يأل أي جهد في تحرير الجزائر واستقلالها. هكذا استعان الكاتب بالرمز للتعبير عن واقع الجزائر، هادفاً إلى تصوير أبعاد جديدة للواقع الثوري.

تعقدت رواية نجمة بأحداثها الملتوية، وعقدتها الكثيرة، ورموزها المتعددة، لذلك يشير ياسين إلى هذه الرموز خلال سرد الأحداث، وضمن حوارات تجري بين الشخصيات وفي الأوصاف التي يأتي بها لهذه الغاية؛ وبنفس الأسلوب يمهد الطريق للقاري الذكي لاستيعاب رموزه بعد دقة وتفكير.

المصادر

- بالخماسة، كريمة، اشكالية التلقي في اعمال كاتب ياسين، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، الجزائر، جامعة مولود معمري، كلية الآداب و اللغات
- حضر، سعاد محمد، الأدب الجزائري المعاصر، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية، د.ت.
- الخطيب، عماد علي سليم، في الأدب الحديث و نقده، عمان، دارالمسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ .
- ديجو، جان، الأدب الجزائري المعاصر المكتوب بالفرنسية، ترجمة ابراهيم الكيلاني، دمشق، سوريا، دارالطلاس للترجمة و الدراسة و النشر، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .
- سعدا...، أبوالقاسم، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر/الموسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥ .
- سفيتلانا براجوغينا، حدود العصور- حدود الثقافات، ترجمه ممدوح أبو الوي/راتب سكر، دمشق، سوريا، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٥ .
- السكوت، حمدي، قاموس الأدب العربي الحديث، مصر، القاهرة، دارالشرق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩ .
- شرف، عبدالعزيز، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، بيروت، لبنان، دارالسجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- عبدالرحمن، عائشة، قيم جديدة للأدب العربي، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٠ .
- عبدلي، محمد السعيد، عالم كاتب ياسين الأدبي، الجزائر، دار قصبه للنشر، ٢٠٠٩
- فاعور، ياسين، القصة القصيرة الفلسطينية ميلادها و تطورها، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١ .
- كندي، محمدعلي، الرمز و القناع في الشعر العربي الحديث، بيروت، دارالكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ .

منور؁ أءمء؁ الأءب الجزائرى باللسان الفرنسى؁ الجزائر؁ دىوان السمطبوعات السامعىة؁ ٢٠٠٧
ياسىن؁ كاتب؁ السبنة السطوقة و الأءءاء ىزءاءون ضراوة؁ ترجمه ملكة أبيض العىسى؁ بىروت؁ لبنىان؁
السوسسة العربىة للءراساء و النشر؁ الطبعة الثانية؁ ١٩٧٩ .
_____؁ لنبمه؁ ترجمه مءمء قوبعة؁ ءونس؁ ءارالراس للنشر؁ ١٩٨٤ .
ىاغى؁ عبءالربمن؁ فى النقء الءطىقى؁ عمان؁ منشوراء أمانة عمان الكبرى؁ الطبعة الأولى؁ ٢٠٠١

المقالاء

حسن؁ حسن؁ كاتب ىاسىن و رحلة البءء عن بنبمة؁ (٢٠٠٦/١٢/٧) www.thawra.alwehda.org
ءفنائوى؁ بعلى؁ مءىنة عنابة؁ www.nu5ba.net؁ ٢٠١١/٩/٢١ .
صالسء؁ عبء الرزاق؁ الاغءراب مفهوم حسى عند الجزائرى كاتب ىاسىن .www.moheet.com .
٢٠١٠/١/١٠ .
كءىل؁ عبء العزىز؁ كاتب ىاسىن عملاق أو وهم كبىر؁ www.arabtimes.com . ٢٠١٠/٤/٤ .